

البيت في المشرق العربي الاسلامي

الدكتور عبد القادر الرّيحاي

المقدمة :

اخذت قضية بناء المسكن وتطويره الكثير من اهتمام الانسان في كل زمان ومكان. وكان الهدف من وراء تلك الجهود المبذولة في هذا الصدد، تحقيق حلم الانسان في الحصول على البيت الذي يوفر له الامن والراحة والاستقرار. ويجد فيه كذلك الرفاهية والجمال، وتحقيق هذه الاغراض، كان يختلف باختلاف الزمان والبيئة ومستوى الفرد من حيث الفقر والغنى، لكنه يعبر دائماً عن المظهر الثقافي والحضاري للأسرة والمجتمع، فهو الخلية الأساسية للمدينة، ومحور نموها وتنظيمها وتطورها.

لقد ثبت من نتائج الحفائر واعمال التنقيب التي اجريت في بلاد الرافدين وسورية ومصر بان خيرات هامة في مجال البناء والتعمير قد تجمعت لدى انسان الشرق العربي منذ بضعة الوف من السنين، مهدت لنشوء الحضارات وظهور المدن.

ودلت الدراسات على ان الشكل العام للبيت كان يعتمد على وجود فناء مكشوف تحيط به غرف. وقد جعلت الغرف مستطيلة ضيقة لكي يسهل تسقيفها بالاقباء، الطريقة الشائعة في بلاد الرافدين وفي مباني اللبن عامة حيث يندر استعمال الخشب، ومع اللبن استخدم الاجر في اماكن محدودة كالبلالط والسلام، لكن الحجر كان مستخدماً في بعض المناطق كما في (اوغاريت) المدينة الكنعانية الواقعة على الساحل السوري. نجده جيد القطع في جدران القصر الملكي وفي المعابد، وساذجا ممزوجا بالمونة في جدران البيوت العادية. ويبدو ان المدينة عرفت رقياً في الخدمات في ذلك العهد المبكر (حوالي القرن 16 و 17 ق م).

ففي بيوتها الصغيرة اماكن للخدمات كالمطبخ والحمام، حيث وجدت احواض حجرية وآبار، كما عثر على اقنية حجرية لتصريف المياه ومزاريب لمياه الامطار وانايب من الفخار لنقل المياه، وشوهدت مجاري تحت الارض لنقل المياه المالحه.

وعثر على ادراج من الحجر تدل على ان المساكن كانت تحتوي على اكثر من طابق. وفكرة تعدد الطوابق في البيوت عرفت في الحضارة القديمة، في بلاد الرافدين وكريت ومصر، دل عليها وجود السلام من جهة والمجسمات التي عثر عليها في مناطق التنقيب، والرسوم الجدارية التي تشاهد في قبور الفراعنة.

ولقد تعددت الطوابق في العهد الروماني، مما احوج الى اصدار تشريع يحدد ارتفاع المساكن بما لا يزيد على الستين قدما اي ما يعادل ثلاثة طوابق ولكن من المدهش حقا ان يبلغ قصر غمدان الذي حدثنا عنه الهمداني عشرة طوابق في ذلك العهد المبكر.

لا شك ان البيت في الشرق العربي قد حصل على مزيد من التطور والرقى في العهدين الهلنستي والروماني، بما ادخل عليه من تحسين في التخطيط والعناصر المعمارية، لا سيما وان تقاليد بناء البيوت كانت متقاربة في حضارات مدن البحر الابيض المتوسط، (فالپاتيوي) و (الانريوم) في البيت الروماني كالصحن في البيت المشرقي، عنصر اساسي.

ولئن وجدنا في الفيلات الرومانية البرك ونوافير المياه، فان الاهتمام بالماء عند العرب القدماء كان موجودا وعثر على تطبيقه المعماري في البرك التي يرجع اقدم مثل واضح لها الى البركة المستطيلة المبنية بالحجر المنحوت في احدى باحات قصر اوغاريت الكنعانية. ويرجع تاريخها الى حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد. كما ان بعض العناصر الزخرفية التي شاع استعمالها في العمائر والبيوت الرومانية كالفسيفساء والفريسكو اي الرسوم الجدارية، وجدت لها اصول معروفة قبل عشرات القرون في المدن العربية القديمة (1) كذلك فان الرواق المحمول على الاعمدة والذي اصبح عنصرا معماريا هاما في العمارة الرومانية، يحيط بفناء البيوت والفيلات الرومانية عثر عليه مستعملا في (أبله) (اواخر الالف الثاني).

ولا شك بان الاقباء والقباب استعملها سكان بلاد الرافدين قبل ان يعرفها الرومان بالوف السنين ولعلها انتقلت اليهم عن طريق الاتروسكيين الذين هاجروا من آسيا الغربية واستوطنوا اواسط ايطاليا في الالف الاول قبل الميلاد.

وقد تمكن الرومان بفضل استخدام البيوت (الخرسانة) والحجر من تطوير القباب والاقباء للحصول على قاعات اكثر اتساعا. واصبح من السهل اقامة وحدات مربعة مسقوفة باقباء متقاطعة او بقبة.

والخلاصة فان البيوت العربية التي انشئت في بلاد الشام قبل الاسلام كانت تبنى بالحجر وتسقف بالبريد (بلاطات طويلة من الحجر)، او بالاقباء المتقاطعة، كما استعملت السقوف الخشبية الجملونية المغطاة بالقرميد.

البيت في الحضارة الاسلامية

1 - العهد الاموي :

كان طبيعيا ان يتأثر البيت العربي بالدين الجديد، كما تأثرت العمارة والفنون واسلوب الحياة، على انه لم يصلنا اي نموذج او وصف دقيق لما كان عليه البيت في صدر الاسلام. ومما لا شك فيه ان البيت التقليدي المنفتح نحو الداخل ذي الفناء والحجرات الملتفة حوله لام مبادئ الاسلام واتجاهاته الاجتماعية والدينية وخاصة ما يتعلق منها بالمرأة، ووجد فيه المواطن المسلم راحته فدعم اسس هذا البيت ورسمها.

ونريد ان نلاحظ بان الشكل الذي وضع عن بيت النبي ﷺ ما هو الا خطوط عامة تمثل وضع البيت بالنسبة للمسجد، فهو لا يعطي فكرة واقعية ودقيقة، فليس من المعقول ان تكون الغرفة التي يسكنها الرسول واهل بيته مفتوحة على صحن المسجد المفتوح لعامة المسلمين، ولا بد أن ما رمز اليه بالغرفة كان وحدة سكنية، وقد اشارت كتب السيرة الى وجود ما يسمى بالبيوت، بيت عائشة وبيت خديجة، وهكذا...

ومع الازدهار والتطور الحضاري الذي حدث في العهد الاموي، ولا سيما على ارض الشام، خرج البيت الاسلامي من اطار البساطة والتكشف. وفي ظل حركة الاعمار التي عرفتها الدولة الاسلامية لاشادة المساجد والقصور، وظهور الفن المعماري الجديد الذي يعكس الذوق العربي والمثل العليا للإسلام، ظهر البيت العربي الاسلامي مثالا احسن تمثيل في تلك القصور الاموية التي نجد العديد منها في بادية الشام، وفي الاردن وفلسطين، وما القصر الا بيت كبير، او مجموعة من البيوت لها صفات مشتركة.

ومن المؤسف ان لا نعثر على بيت واحد في المدن، والتنقيبات التي بدأت في دمشق بحثا عن آثار (الخضراء)، دار معاوية التي كانت تجاور الجامع من ناحية الجنوب لم تستكمل، واهم ما وصفها به المؤرخ ابن عساكر قوله : (الخضراء من بناء اهل الجاهلية، من البناء القديم، اعاد بناءها معاوية بالطوب ثم نقضها وبنائها بالحجارة) (3).

اذن لم يبق امامنا سوى المنازل الاموية المشيدة خارج المدن، ويمثلها احسن تمثيل الحير الغربي الذي كشف عن مخططة وعناصره المعمارية والزخرفية كاملة. ونجد في الحير الغربي دارا كبيرة يحيط بها سور مرتفع، خال من الفتحات، في وسطها صحن واسع يحيط به رواق على اعمدة، توزعت خلفه اجنحة السكن على طابقين وهي بيوت متلاصقة، يتكون كل بيت من بهو واسع تنفتح على جانبيه الغرف بشكل يراعي التناظر والتناسق في التوزيع بعضها مربع وبعضها مستطيل الشكل.

وفي الحير الشرقي الذي تاكد لدينا بانه عرف (بالزيتونة) (4) الاسم الذي تردده النصوص القديمة، نجد في القصر الكبير مجموعة من البيوت المستقلة تتوزع حول الساحة الرئيسية، ويتألف كل منها من صحن سماوي محاط برواق، وتتوزع خلفه القاعات والغرف.

2 - البيت في العهد العباسي

ونبحث عن البيت العربي في العهد العباسي فلا نجد آثاره سوى داخل القصور ومنازل الامراء ويتبدى لنا الفرق والتغير واضحا اذا ما نظرنا الى آثار قصور سامراء (الجوسق الخاقاني، بلكوار، قصر الجص...).

ونلاحظ بان القصر العباسي لم يعد بيتا كبيرا كما كان القصر الاموي بل غدا اشبه بمدينة ملكية فيها الباحات الواسعة والملاعب والحدائق، وبيوت السكن والحمامات وقاعات العرش والاستقبال.

على ان خير ما يعطينا فكرة واقعية عن البيت العباسي، تلك البيوت التي نجدها في قصر الاخضر الحصين، وهذا القصر العباسي الوحيد الذي مازال قائما ترتفع اسواره المبنية بالحجر والجص قرابة العشرين مترا.

داخل هذا القصر الذي شيد في عهد الخليفة المنصور، والمرجح انه كان منزلا لعمه عيسى ابن موسى، نجد بيوتا مستقلة تتشابه في تخطيطها، تحيط بقصر مركزي كبير. ولعل هذه البيوت المتعلقة كانت لرجال الحاشية يتكون البيت من صحن اقيم في طرفيه المتقابلين جناحان يتالف كل منها من بهو واسع كالأيوان، وعلى جانبيه غرفتان مفتوحتان عليه وعلى الصحن، وتتميز في هذه الاجنحة شكلين من التخطيط.

فبعض البيوت يتقدم اجنحتها السكنية برواق او سقيفة ذات ثلاث فتحات وقد تحول البهو الى ايوان حقيقي، وبعضها خلا من الرواق.

ويعزو البعض هذه البيوت الى تأثيرات العمارة الساسانية، حيث عثر على نموذج شبيه بالشكل الاول اي الجناح ذي السقيفة في قصر الشيرين بينا عثر على الشكل الآخر في فيروزاباد، لكن البيت بتخطيطه العام لا يشبه اي منشأة ساسانية بل يتصف بالأصالة، وقد احتوى الصحن في طرفه الثالث على رواق من خمس فتحات. بينا فتح الباب في الطرف الرابع، حيث يؤدي الى الدهليز المشترك الذي يحيط بالقصر المركزي.

بيوت الفسطاط

نماذج اخرى للبيت في العهد العباسي عثر عليها في فسطاط مصر حيث كشفت التنقيبات التي قام بها المرحوم (على بهجت) و (البير كابريل) عن معالم واضحة لعدد من البيوت يرجع تاريخها الى العهدين الطولوني والفاطمي، اي بين القرنين الثالث والخامس الهجريين.

ويبدو التشابه كبيرا بين هذه البيوت وبيوت الاخضر التي مر وصفها، وليس ذلك غريبا اذا عرفنا ان فن سامراء العاصمة قد انتقل الى مصر وانتشر بشكل محسوس على يد اميرها احمد بن طولون.

لكننا نلاحظ في بيوت الفسقاط أنها لم تتوقف عند إقامة الجناحين الموجودين في الاخضر بل تعددت فيها الوحدات السكنية وان بعض البيوت زود بجناح اضافي مجاور الباب وله فناء خاص صغير. وتعددت الاواوين المطلة على الصحن وغدت في البيوت الكبيرة ثلاثة او اربعة. وكان الصحن يحتوي اضافة الى احواض الزرع على بركة ماء تخرج منها في بعض البيوت قناة الى فسقية في ايوان احد الاجنحة. ونجد في بيوت الفسقاط كذلك اهتماما خاصا بالمدخل الذي اصبح ممرا منكسرا في دهليز طويل احيانا، وهذا ما يعطي للصحن الداخلي عزلة كاملة. وهكذا نجد ان البيت العربي الاسلامي قد انتقل الى مرحلة جديدة من التكامل.

وهناك ظاهرة في التخطيط تلفت الانتباه في اكثر بيوت الفسقاط تتعلق بعدم انتظام الحدود الخارجية وكذلك عدم استقامة جدران الغرف والوحدات السكنية الاخرى، فلا تؤلف الجدران فيما بينها زوايا قائمة، باستثناء الاقسام الرئيسية كالصحن وواحد من الاجنحة والرواق الموازي له.

ولعل السبب في عدم انتظام الجدران الخارجية، تداخل حدود البيوت او توسيع رقعة البيت مع الزمن، يدل على ذلك التواء الازقة وعدم انتظام الدروب الامر الذي نلاحظه في معظم المدن العربية القديمة.

واخيرا لا بد ان نتساءل عن وجود طوابق علوية في هذه البيوت المبنية باللبن (الطوب) والاجر (اللبن المشوي) والمسقوفة بالخشب وسعف النخل، او بالاقباء المعمولة من اللبن والاجر في بعض الاماكن كالاواوين. حيث لم يعثر في الاطلال على اكثر من جدران الطوابق السفلى، وكانت مكسوة بالجص الذي يحمل احيانا نقوشا وزخارف شبيهة بالنثي شاعت في مباني سامراء. ولقد اكد الدكتور فريد شافعي (5) عند دراسته لهذه البيوت على تعدد الطوابق فيها مستدلا من سماكة الجدران اولا، ومن وجود انايب من الفخار لنقل الماء فيما بينها، وقنوات تصريف، وادراج السلام.

ويرى الدكتور شافعي بان بيوت الفسقاط كانت مزودة بشبابيك مفتوحة على الفناء الداخلي ولها مشربيات تصنع من الخراط اي الخشب المخروط المعشق في بيوت ذوي اليسار، او من الخرازانات اي القصب او العصي ذات المقطع نصف الدائري ولا ندري مدى صحة هذا الرأي لانه يقول بانه لم يعثر على اثر لهذه المشربيات ولا على اي نوع من الاحشاب كالاواب والشبابيك لانها كانت عرضة للحريق والسرقة.

3 - البيت في العهدين السلجوقي والايوبي

لم يعثر حتى الان على بيوت من هذا العهد، مما يجعلنا نبحت عن شكل البيت في المنشآت الاخرى المعاصرة. ولا شك ان تجديد طراً على تنظيم البيت في العراق والشام تبعاً للتطور الذي حدث في الفن المعماري عامة.

فالمعروف ان بناء المدارس شاع وانتشر على عهد السلاجقة ثم الايوبيين من بعدهم، وشيدت كذلك الخانقاهات (الرباطات) والبيمارستانات. وكان المخطط العام لهذه المباني شبيها بمخطط البيت، صحن تتوسطه بركة، وتحيط به قاعات واواوين، ومجموعة من الغرف في الطابق العلوي. ويدخل اليها من باب يؤدي الى دركاه (دهليز). ولا بد ان نعلم هنا بان اهتمام السلاجقة ببناء المدارس منذ عهد الوزير نظام الملك الذي تحمس في نشر مذهب السنة للتغلب على خطر الشيعة والباطنية والمذاهب المنحرفة، كان بمقدوره استخدام المساجد لهذا الغرض، وقد كانت من قبل مكانا للعبادة والتعليم. ولكن من اهداف المدرسة كما بدا من تصميمها الذي يختلف كثيرا عن تصميم المسجد ان تكون مقرا للمدرسين وطلاب العلم، فهي تضم الى جانب قاعات الدرس والمسجد غرفا عديدة صغيرة للسكنى، ووجدنا في بعض المدارس تصميمها يجعل في المدرسة اجنحة خاصة للسكن منعزلة عن القسم الاساسي للمدرسة المؤلف من المسجد وقاعات الدرس واحيانا التربة. وهذه الاجنحة بيوت حقيقية تتألف من صحن خاص بها، واواوين وغرف موزعة على طابقين مختلفة الحجم تضرب مثلا على ذلك مدرسة الفردوس التي انشاها الايوبيون في حلب وقد طبقت هذه الفكرة فيما بعد حين شيدت مدرسة السلطان حسن في القاهرة في العهد المملوكي مع اختلاف في تخطيط البناءين.

والذي نراه بان مخطط المدارس او وحداتها السكنية المماثلة لم تكن تختلف عن شكل البيت، سوى ان المدارس كانت اكثر عناية من حيث مواد البناء والفن المعماري. كانت تجعل لها بوابة مزينة بالقرنصات وغير ذلك من عناصر الفن السائد مما لا نراه الا في بيوت ذوي اليسار او الامراء وقصور الحكام. فما الرباط الناصري في حلب سوى دارين احدهما للرجال والاخرى للنساء وقد حل المسجد المقام في جناح الرجال الكبير محل قاعة الاستقبال الكبيرة وهو مؤلف من قسم متوسط مسقوف بقبة وعلى جانبيه ايوانان عن يمين وشمال معقودان بقبة طويلة.

كذلك نجد مدرسة صاحبة والبيمارستان القيمري وهما من عمائر الايوبيين في دمشق اشبه بدارين حقيقيتين والذي اكد لي هذا الراي حول التشابه بين البيت والمدرسة ما عثرت عليه من اخبار تشير الى ان الكثير من المدارس التي اشتهرت في دمشق كانت في الاصل بيوتا ومساكن.

فالمدرسة البادرائية وهي من مدارس العهد الايوبي المشهورة كانت دارا لاسامة (الامير اسامة بن منقذ).

والمدرسة الشبلية كانت دارا لشبل الدولة. والمدرسة العادلية الصغرى كانت دارا اشترتها زهرة خاتون بنت الملك العادل ابو بكر وجعلتها مدرسة والاقباليتان الكائنتان بالقرب من المدرسة الظاهرية كانتا دارين اشتراهما الامير جمال الدولة اقبال، وجعل احدهما مدرسة للحنفية والاخرى للشافعية والدخوارية كانت دارا اشترها شيخ الاطباء ابن الدخوار وحولها مدرسة للطب.

وعلى العكس من ذلك فان مدارس عدة كانت قد اتخذت دورا خاصة بمسكن العلماء والمدرسين، من ذلك المدرسة البدرية اعطيت لسبط ابن الجوزي (مؤلف كتاب مرآة الزمان المشهور) والمدرسة العادلية اعطيت للقاضي ابن خلكان (صاحب كتاب الوفيات).

ونخلص الى القول باننا اذا افتقدنا نماذج للبيت العربي في هذا العهد الوسيط من عهود الحضارة العربية الاسلامية، فاننا نجد صورة مماثلة منه في هذه المدارس والرباطات والبيمارستانات التي يوجد منها الكثير اليوم، ولا سيما في مدينتي دمشق وحلب.

واريد ان اشير الى نوع اخر من التخطيط ظهر في عهد السلاجقة امتد تأثيره لعدة قرون على بناء المدارس والمساجد والقصور والبيوت. ولقد ظهر على الاخص في الاناضول للتغلب على برودة طقس تلك المنطقة. ذلك هو التخطيط القائم على اساس الصحن المسقوف. فلقد حافظ السلاجقة على التخطيط المألوف المكون من صحن واواوين وغرف موزعة في الاركان وجعلوا الصحن مربعا مسقوفا بقبة، واحتفظوا ببركة الصحن. وهكذا اصبح البناء وحدة مغطاة كلها.

وانتقل تأثير هذا التخطيط الى الشرق العربي فظهر اول ما ظهر في المدرسة التي شيدها السلاجقة عند برك الناقية في بصرى الشام. ثم في المدرسة الركنية الايوبية في دمشق ثم في المدرسة الجقمقية التي شيدت في العهد المملوكي الى الشمال من جامع دمشق الاموي.

واريد ان اشير الى ظاهرةلفتت انتباهي خلال دراستي لتاريخ دمشق العمراني (6) تتعلق ببيوت النزهة، او ما اطلق عليها وقتئذ الجواسق (جميع جوسق) وهي كلمة فارسية رايناها تطلق على بعض القصور العباسية كقصر المعتصم في سامراء (الجوسق الخاقاني) تشبها لها بالقصور.

ذكرت المصادر ان السلطان نور الدين حسن حين شاهد ما كان يحظى به الاغنياء من متعة السكن والتنزه بالجواسق والمقاصف في دمشق، امر ببناء قصر في الربوة خاص بالفقراء خلده بعض الشعراء في قصيدة، نذكر منها هذا البيت :

عمر الربوة قصرا شاهقا نزهة مطلقة للفقراء

وانها لظاهرة تدل على الرفاه والرغبة في التحرر من جو المدينة المكتظ بالسكان، حيث يجد الانسان في هذه البيوت ما لا يتحقق له في المدينة من هواء عليل وطبيعة جذابة، تتوفر فيها الخضرة والماء، اشتهرت بها ارياض دمشق كالنيرين والربوة والمزة وسفوح قاسيون.

وبدا لنا بان هذه البيوت كانت موسمية يخرج اليها اصحابها في الربيع والصيف، فاذا هي اشبه ببيوت الاصطياف في عصرنا.

ونعود ايضا الى النصوص لنجد ما وصفت به بيوت دمشق في ذلك العهد فلقد قال في وصفها الرحالة ابن جببر الذي زارها في اواخر القرن السادس (12م) (وبيوتها طين وقصب، طبقات بعضها فوق بعض، ولذلك يسرع الحريق الى البلد وهو كله ثلاث طبقات فيحتوي من الخلق ما تحتوي ثلاث مدن).

ويبدو ان زيادة الارتفاع في البيوت كانت تعبيرا عن ضيق الارض ورغبة الناس في السكن داخل الاسوار، فالالتساع الافقي لا يقدر عليه غير ذوي الثراء لا سيما حين ترتفع اثمان الاراضي، وليس هناك من سبيل امام العامة عند تكاثر افراد الاسرة في البيت الواحد الا باللجوء الى زيادة عدد الطوابق.

وفيما يخص مواد البناء في قول ابن جبير، فان المادة التقليدية كانت وحتى عهد قريب تعتمد على الاجر واللبن والخشب، ولا يستعمل الحجر الا في الاساسات وامكن جد محدودة على خلاف المباني العامة كالمساجد والمدارس وبيوت الخاصة وذوي الثراء. ولقد ابدى المقدسي ايضا قبل ابن جبير (القرن الرابع) ملاحظة مماثلة حين وصف مدينة دمشق : (وابنيها خشب وطين، ومنازلها ضيقة، وازقتها غامة) بينما عرفت بيوت حلب وحتى الفقيرة منها باستعمال الحجر كإداة تقليدية يعتمد عليها من زمن بعيد وحتى يومنا.

وقد لاحظ القدماء هذا الفرق، فقال القلقشندي (صاحب كتاب صبح الاعشى) حين عقد مقارنة بين بيوت دمشق وحلب : (وعناية اهل دمشق بالمباني كثيرة وان كانت حلب اجل بناء لعنايتهم بالحجر، فدمشق ازين واكثر رونقا لتحكم الماء الى مدينتها، ويستعمل في عمارتها الخشب الحور بدلا من خشب النخل، الا انه لا يغشى بالبياض ويكتفي بحسن ظاهره).

4 - البيت العربي في العهد المملوكي

وتصبح البيوت في العهد المملوكي اكثر اشراقا وجمالا، كنتيجة لما حدث من تطور على الفنون والعمارة، حيث انطلقت من جو الجد والصرامة التي كانت عليه في العهد الايوبي لتحقيق المزيد من التجديد والتنوع في العناصر والاسراف في الزينة والزخرفة، وكان ذلك تعبيرا عن الترف والرفاه الذي نتج عن انتهاء الحروب الصليبية، والازدهار الاقتصادي الذي عرفته البلاد في اكثر ايام العهد المملوكي.

اصبحت العماير ترفل في الزينة والزخرفة داخلا وخارجا، حيث لم يدع الفنان المسلم مكانا في الارض والسقوف والجدران الا وكساه بعنصر زخرفي من رخام ملون او مقطع على هيئة الفسيفساء يمازجها الصدف او رخام منقوش مغشى بالذهب، وخشب محفور او مطعم ومدهون بالاصبغة. وحتى سطوح القباب والمآذن لم تبق على ما كانت عليه، بل كسيت بالزخارف المتنوعة.

فهذه الثورة الفنية اذن لا بد ان تنعكس على البيت العربي في المناطق الخاضعة للسلطنة المملوكية ولا سيما مصر والشام.

ونبحث عن آثار البيوت والقصور فلا نجد سوى النزر اليسير، ففي القاهرة بقايا وقطع متناثرة من بيت قايتباي والغوري والامير طاز وقوصون، وقاعة من بيت محب الدين التي تحدى على قبة مقرنصة فوق القبة.

بينما لا نجد في بلاد الشام اليوم شيئا منها سوى الصورة التي حفظها لنا عنها العمري (القرن الرابع عشر للميلاد) حين تحدث عن دمشق : (وبها الديار الجليلة المذهبة السقوف المفروشة بالرخام، ومنها ما هو مؤزر الحيطان بالرخام المتنوع، المقصل بالصدف والذهب. ذات البرك والماء الجاري، يجري الماء في الدار الواحدة في اماكن منها).

وحين وصف القصر الأبلق، قصر الظاهر بيبرس (668 هـ) : (مبنى بالحجر الأسود والاصفر، مدامك من هذا ومدماك من هذا، ويدخل اليه من دركاه له جسر راكب بعقد على مجرى الوادي الى ايوان براني ثم يدخل الى القصر من دهااليز فسيحة تشتمل على قاعات ملكية بالرخام الملون مموهة بالذهب واللازورد والفضى المذهب (8) وازر بالرخام الى سجدف السقف، والدار الكبرى بها ايوانات متقابلات (9) الخ...).

وينطبق هذا الوصف تماما على ما نراه اليوم من المباني العامة كالمدارس والمساجد وهي كثيرة في مصر والشام وعلى البقية التي ذكرناها من بيوت القاهرة وتشابه كلها في التخطيط والعناصر المعمارية والزخرفية من ذلك البوابة ذات المقرنصات والدركاه او الدهلز خلفها، والعقود الحجرية والرخام الملون، او الفسيفساء الرخامية في البلاط ووزرة الجدران، والسقوف الخشبية الملونة والملاحظ ان الفن الاسلامي الذي ترسخ في العهد المملوكي في حقل العمارة والزخرفة وبناء البيوت قد استمر لقرن او اكثر. حيث نجد اثاره في البيوت والعمائر العثمانية الاولى مما يجعل التشابه كبيرا بينها وبين ما انشئ في اواخر العهد المملوكي، ونأتي بمثال على ذلك بيت جمال الدين الذهبي في القاهرة (1047 هـ) وبيت رجب باشا في حلب وبيت الزهراوي في حمص، وبيت في دمشق تحول الى مدرسة زينت فواز، هذه البيوت يحسب من يراها للوهلة الاولى بانها من العهد المملوكي.

وقبل ان ننهي الحديث عن بيوت هذا العهد لابد ان نذكر تصميميا معماريا جديدا ظهر في مجال السكنى، عرفته القاهرة بشكل خاص. ذلك ما عرف (بالربع)، وقصد به الجمع السكني وكان يتألف من صحن كبير مشترك تتوزع حوله بيوت صغيرة موزعة على عدة طبقات تبلغ الخمس احيانا تؤجر للأسر الفقيرة واقامت في الطابق الارضي من البناء دكاكين على الشارع.

ولعل هذه الفكرة انما وجدت من اجل حل ازمة السكن، وتذكرنا هذه المنشأة بفكرتها وتخطيطها وتعدد الطبقات بمثلتها التي عرفت عند الرومان اي ما اطلق عليه (انسولا — INSULA).

5 — البيت العربي في العهد العثماني

نصل في هذا العهد الى خاتمة المطاف في تطور البيت العربي فالبيوت التي نشاهدها يرجع معظمها الى ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر. وتعتبر حصيلة خبرات قرون ونتيجة تجارب حضارات مارسها الانسان العربي والمسلم في المشرق والمغرب على السواء، في مجال

التخطيط واختيار العناصر والحلول المناسبة بحثا عن المسكن المثالي الذي يحقق راحة الجسم والنفس ويلبي الرغبات ويرضي الافكار التابعة عن الدين والمجتمع، ويتلاءم مع الاقليم والمناخ. ويرضي الذوق والميل الفني وهو ميل اصيل تميز به الانسان في الحضارة العربية الاسلامية.

هذا ما استيقنته اثر زيارتي للعديد من هذه البيوت العامة الى اليوم في القاهرة ومدن الشام وتونس والجزائر والمغرب والحجاز واليمن، وقراءتي ما كتبه عنها العلماء والرحالة قديما وحديثا وما ابدوه من اعجاب وتقدير لمزاياها وانه لدليل ناصع على ما في تراث حضارتنا العربية الاسلامية من روائع ومحاسن تدعو للفخر والاعتزاز.

ومن المؤسف حقا ان تذهب هذه الثروة من البيوت التي تزخر بها المدن العربية ولولا اقدام سلطات الاثار في هذه الدول على حماية بعض منها بادراجها في سجل الاثار (10) لسارت في طريق الانقراض ولما بقيت شواهد للاجيال المقبلة تحدثهم عن نمط الحياة السكنية التي عاشها اجدادهم.

ساقوم بوصف كامل لبيت نموذجي من بيوت المشرق واقول المشرق لاني قصرت بحثي على البيت في المشرق العربي الاسلامي وان كانت هناك خصائص تكاد تكون واحدة تشمل البيت في المشرق والمغرب، فهي جميعا تنتمي لحضارة واحدة وتستمد من تراث مشترك، وان كانت هناك بعض الفروق في التفاصيل، فمردها الى اختلاف الاقليم او الموارد المتوفرة، او الى العادات المحلية الموروثة، حتى اننا نلاحظ هذا الاختلاف بين بيوت البلد الواحد، كما رأينا قبل قليل في المقارنة التي عقدها القلقشندي بين بيوت دمشق وحلب. واني لارى بان لكل بيت شخصيته التي أسهمت في ابرازها طبيعة الارض ورغبات السكان واذواقهم في اختيار المواد والعناصر وطريقة توزيعها، واخيرا ما يعمد اليه المهندس او المعمار من محاولة الابتكار والتجويد. وسوف اشير الى هذه الفروق في حينها.

1 — البوابة والمحيط الخارجي

مما يستلفت الانتباه ان المظهر الخارجي للبيت بسيط لدرجة مسرفة في التواضع بالمقارنة بما في الداخل من الروعة والجمال. فالجدران ساذجة صماء خالية من الفتحات في الاصل الا من نوافذ ضيقة وعالية بالنسبة لمستوى الشارع والجدران مبنية بالحجر الغشم في اجزائها السفلى وبالأجر واللبن والخشب فيما تبقى باستثناء بيوت حلب التي تعتمد على الحجر كليا كما اسلفنا، والجدران سمكة عادة سواء كانت من الحجر او اللبن، وهذا يساعد على التخفيف من وطأة الجو الخارجي الحار او البارد، علما بانه لا يتعرض من الجدران الخارجية لتأثير الجو سوى جزء محدود بسبب اندماج الاجزاء الاخرى مع الجدار.

اما ما نشاهده في بعض البيوت من فتحات على الشارع فيعتبر عادة دخيلة على البيت العربي. واستتبع استعمال هذه الفتحات وضع حواجز خشبية دعيت في مصر بالمشربيات (11)

نجد نماذج لها في وكالة الغوري وفي بيت قايتباي من اواخر عهد المماليك. ولكن ما نشاهده من بروز قد يكون من عهد لاحق اي من العهد العثماني، وهكذا تحولت المشربيات الى ما يعرف بالروشن (12) او الكشك الذي يطل على الشارع من ثلاث جهات.

واستخدمت هذه المشربيات البارزة في بيوت القاهرة لتغطية الفتحات المطلة ايضا على الفناء الداخلي، وهذا شيء لا نظير له في بيوت الشام، ولعل السبب يرجع الى شدة المناخ في القاهرة والرغبة في التخفيف من وطأة الشمس والنور، وقد يكون هناك دافع آخر اجتماعي يتصل بالحجاب والمرأة حيث تسمح المشربية للنساء بالاطلالة على الصحن في اوقات الحفلات ووجود الرجال دون ان يكشفن.

ولكن لا تسيء المشربية الى تصميم الواجهة فقد اعتني بصنعها وزخرفتها بالخشب المخروط وبالرسوم والاشكال لتغدو قطعة فنية.

ولم تعرف البيوت الفتحات على الشارع في بلاد الشام الا في عهد متاخر ولعل ذلك لا يرجع الى ابعد من القرن التاسع عشر حين شاعت عادة فتح شبايك في الطابق الارضي فوق مستوى الرؤية، وزودت الطوابق العليا بفتحات كبيرة تغطيها الاكشاك او الرواشن وهذا تعبير عن مزيد من التحرر والانطلاق والرغبة في الحصول على مزيد من النور والهواء، فضلا عما فيه من كسب في المساحة على حساب الشوارع.

ونجد هذه الرواشن مستعملة بشكل واسع في بعض مدن الحجاز كمكة وجدة حيث يختلف هنا تصميم البيوت عن البيت التقليدي الذي نصفه. فهي خالية من الصحن، وتتألف من عدد من الطوابق تصل الى خمسة احيانا، ولذا فانها تسمى بالبيوت الابراج فهي شبيهة بذلك ببيوت صنعاء اليمن (13) نجد في البيت رقعة ضيقة او ممرا مكشوبا، ولكن الاعتماد الكلي في الحصول على النور والهواء على الفتحات الخارجية التي وضعت امامها الحواجز الخشبية البارزة او الرواشن.

اما باب البيت فهو مفتوح على الشارع او على زقاق ضيق في ركن واحد من الجدران الخارجية ثم يؤدي الى دهليز او دركاه، كي لا ينفتح على الصحن مباشرة محافظة على الخصوصية وحرية السكان، وغالبا ما يكون الدهليز في ممر منكسر. ويعلق الباب بمصراع كبير من الخشب الجيد، وقد يزود بفتحة صغيرة (تسمى خوخة) ويحيط بالباب اطار حجري معتنى به، وقد تكون حجارته من اللوان متناوبة وقد يعلو الباب شبك صغير عليه (خصص) او مشربية.

2 — الصحن او الفناء الداخلي وخصائصه

الصحن في البيت العربي عنصر رئيسي وله مكانة كبيرة في اسلوب السكن والمعيشة، يفاجأ الداخل اليه باحساس الانتقال المفاجئ من اطار البساطة الى جو غني بكل مظاهر الجمال والبهجة لما يراه في الصحن وعناصره والواجبات المحيطة به من عناية فائقة معماریا وفنيا. فالارض

مبلطة بالحجارة البيضاء أو الرخام الملون، مرصوفة بأشكال هندسية منتظمة. وفي وسط الصحن بركة ماء مستطيلة أو مربعة أو مضلعة، تخرج من وسطها نافورة يتساقط الماء منها بصوت كصوت المطر وليس ما يطرب الإنسان العربي ويسر ناظره أكثر من رؤية الماء والخضرة. وفي أركان عديدة من الصحن توجد الأشجار وعرائش الكرمة والياسمين وأحواض الزهور وقد نجد كما في أكثر البيوت الحلبية مصطبة حجرية إلى جانب البركة تستخدم في أيام الأفراح (كتخت) للمغنين أو المغنيات. ونجد كذلك في البيوت الحلبية بئرا وصهريجاً يغطيهما خرزة حجرية، نظرا لقلّة المياه في هذه المدينة واعتماد أهلها سابقا على مياه المطر.

هذا وللصحن وظائف ومنافع عديدة نذكر منها :

أ) الناحية الصحية : يمد الصحن أقسام البيت بالنور والهواء واشعة الشمس ويلطف من برودة الجو شتاء وحرارته صيفا يتحول إلى خزان كبير للهواء البارد في ليالي الصيف فيمد أقسام البيت ببرودته حتى ساعات متأخرة من النهار، وبالعكس فإنه يحتفظ في الشتاء بدفء النهارات المشمسة ليمد بها غرف البيت ساعات بعد غياب الشمس.

ب) الناحية الاجتماعية والنفسية : يعتبر الصحن النافذة التي يطل منها الإنسان على الكون اللانهائي تطلله على الدوام قبة السماء بشمسها ونجومها وغيومها وبحس بالحرية المطلقة والهدوء والطمانينة، والصحن مكان التقاء أفراد الأسرة وتعاونهم ومكان للجلسات الصباحية والمساءية، واللقاءات الاجتماعية فهو أحسن مكان لأحياء الحفلات والسهرات ومكان رحب لمناسبات الأفراح والاتراح.

3 — الواجهات الداخلية :

تؤلف الواجهات الخلفية المعمارية، حيث تتوزع الأوابن والأروقة وفتحات الأبواب والشبابيك في تصميم معماري زخرفي رائع وهي مبنية بالحجر المنحوت المتناوب الألوان أحيانا، تتخلله الأشربة الزخرفية والعقود والمحاربي والنقوش والمقرنصات ورقاع الفسيفساء (14) وتفاوت ارتفاعات الواجهات بحسب الوحدات السكنية فيتكون من مجموعها خط متكسر بعيد عن الرتابة.

وتتنوع أشكال الفتحات، فمن شبابيك مسقوفة بساكف، مستطيلة الشكل يغطيها حبل من قضبان الحديد، خلفه درقات الزجاج والخشب، وطاقات مستديرة (قماري) ونوافذ مقوسة في أعلاها بعقد مجزوء أو نصف دائري. وللأبواب مصاريع من الخشب المتقن الصنع المزود بالخشوات الهندسية والمطعم بالعاج أو الصدف.

ويختلف منظر الواجهات بعض الشيء في بيوت القاهرة، حيث نجد (التختبوش) بدلا من الأوابن، فهو ظلة مفتوحة على الصحن بدون قنطرة كالأوابن، ونجد المقعد الذي يحتل مكانة في الطابق العلوي أو بين الأرضي والعلوي وهو غرفة مفتوحة كليا على الصحن تتألف واجهته من

قنطرتين فهو اشبه بالشرفة (الفريندا) في البيوت الحديثة، وهناك المشربيات (الاكشاك الخشبية) الجميلة مما لا نراه في البيوت الشامية.

4 — الوحدات السكنية :

تتوزع حول الصحن الوحدات السكنية على جهاته الأربع في اغلب الاحيان ففي احدى الجهات نجد الايوان وهو كغرفة واسعة مفتوحة كليا على الصحن بقنطرة من الحجارة الملونة والمنزخرفة، ويرتفع مقدار درجة عن مستوى الصحن، محاط احيانا في داخله بمصطبة مفروشة للجلوس والاستحمام، وغالبا ما يجعل موقع الايوان في الجهة الجنوبية ويسمى عندئذ شمالي لانه يطل على الجهة الشمالية وللأعلى لا يكون معرضا لاشعة الشمس، او يكون غربيا ليتقبل الرياح الغربية وعلى جانبي الايوان غرفتان مفتوحتان على الايوان فقط، ولهما شبابيك مفتوحة على الصحن وعلى الايوان وبذلك تتكون وحدة منسجمة من الايوان والغرفتين، وفي جانب آخر من الصحن نجد عدة غرف متجاورة في مستوى ارض الصحن او نجد رواقا يتقدم الغرف ليحميها من اشعة الشمس.

وفي جهة ثالثة توجد القاعة الكبرى المخصصة لاستقبال الضيوف وتكون مرتفعة عن مستوى الصحن يصعد اليها بعدة درجات، ويقام تحتها احيانا قبو ينزل اليه بدرج، والقبو عبارة عن غرفة مسقفة بقبوة ولها نوافذ على الصحن في مستوى الأرض، في اسفل واجهة القاعة. ويستفاد منه في حفظ المؤن او كغرفة طعام صيفية بسبب ما يحتفظ به من الرطوبة وقد تزود بعض البيوت بما يسمى المغارة وتكون اكثر عمقا من القبو وتحث احيانا تحت الصحن.

وهناك في جانب آخر من البيت المطبخ وهو مكان واسع يضم الاثافي وادوات الطبخ واحواض الماء، وقد نجد في البيوت الهامة حماما متكاملا كالحمامات العامة لكنه اصغر منها، وكذلك جناحا خاصا بالضيوف واخر بالخدم ولكل منهما فناء خاص، ويتصلان بالفناء الاساسي الكبير بممرات مكشوفة او دهاليز مسقوفة وهذا يستتبع ان يكون للبيت احيانا اكثر من باب وقد يلحق بكتلة البيت اصطبل ودكاكين مفتوحة على الشارع.

هذا هو التخطيط العام للطابق الارض (16) في بيوت الشام ومصر اما الطابق العلوي فنجد في اكثر البيوت، وهو لا يغطي كامل المساحة مما يدع مجالا لاحداث سطح او اكثر يستفاد منه في بعض الحاجات المنزلية والجلوس في ليالي الصيف. ويصعد الى الطابق العلوي بسلام حجرية مخفية في مكان مسقوف احيانا، او ظاهرة في بعض جوانب الصحن، مزودة بدرابزين من الحديد او الخشب وفي الطابق العلوي غرف وقاعات مخصصة للنوم وخاصة في الشتاء لكونها معرضة لاشعة الشمس اكثر من قاعات الطابق الارضي حيث الظل والرطوبة والمياه مما يجعله مناسباً اكثر من الطابق العلوي للصيف.

وقد كثرت الفتحات في غرف الطابق العلوي رغبة في مزيد من النور والشمس والاطلالة على الصحن فاصبحت تؤلف واجهاتها سلسلة من الشبابيك الزجاجية (17) وقد زود بعضها بايوان صغير للجلوس (18) وزود البعض الآخر بممر مسقوف امام الغرف يطل على الصحن للوصول الى سائر غرف الطابق العلوي باستخدام سلم واحد بدلا من ان يخصص سلم لكل جهة. ومن النادر ان نجد طابقا اخر فوق الطابق العلوي ولكن قد يحدث ان تضاف غرفة واحدة وتكون غالبا من الزجاج والخشب اسمها اهل دمشق (الطيارة) بسبب ارتفاعها واشرافها على المحيط الخارجي. وهكذا نجد سكان البيت العربي قد تصرفوا بأشكال عديدة في تنظيم البيت تحقيقا لراحتهم وسعادتهم وارضاء لآذواقهم.

5 — كسوة القاعات وتنظيمها الداخلي :

تتألف القاعة الكبرى ومعظم الغرف الأخرى من عتبة واسعة تلي الباب يسميها المصريون (دراقعة) ويلها ايوان او ايوانان متقابلان على جانبيها او متعامدان احيانا، او ثلاثة اواوين موزعة على شكل الحرف (T) اللاتيني ويرفدها غرف مربعة تحتل بعض الأركان (19) كما هو الحال في قاعة الحرم لك في بيت العظم بدمشق وتسمى هذه الدواوين في دمشق (طرر وطررات) وهي مفتوحة على العتبة بقنطرة معقودة بالحجارة الملونة المزخرفة بالفسيفساء وترتفع الأواوين عن مستوى العتبة بمقدار درجة. وتحتوي العتبة في أكثر القاعات على بركة ماء او فسقية من الرخام الملون او الفسيفساء الرخامية باطنها قليل العمق، تخرج من وسطها وحواها نوافير الماء، وارض القبة مبلطة بعناية بالرخام الملون ذي الاشكال الهندسية وسقفها يرتفع عن سقوف الأواوين كي تجلب النور الى داخل القاعة من نوافذ في اعلى السقف (20) وقد يكون السقف قبة كما في قاعة قصر العظم بحماة.

وتؤزر جدران الغرف والقاعات عادة بكسوة من الرخام الملون ويتخللها لوحات زخرفية من الفسيفساء (الابلق) كالتي تقدم وصفها.

وقد نجد بين هذه الكسوة سبيلا من الرخام المفصل بالاشكال والالوان يسيل منه الماء ببطء على سطحه العمودي المائل قليلا، لينصب في حوض من الرخام الجميل كما هو الحال في العديد من بيوت دمشق.

ويحل الخشب المزخرف في كسوة الجدران بدلا من الرخام وتتخلله المكتبات والخزائن وقد اشتهرت بيوت الشام باستعمال هذا النوع الجميل من الخشب في السقوف والجدران ويطلق عليه الحلقة العجمية، تغطي الخشب الزخارف النافرة النباتية والهندسية المصبوغة بالالوان الجذابة ويغشى بالذهب وتتخلله الواح عليها آيات قرآنية واشعار مكتوبة بماء الذهب .

وهكذا نرى بان القاعات في البيت العربي الاسلامي تحولت الى متحف للفن الاسلامي وقد انفق عليها بسخاء ليرضي الميول الفنية وحب الجمال التي جبل عليها ابن الحضارة الاسلامية كما قلنا.

بعد هذا الوصف المعماري والفني لقاعات البيت العربي الاسلامي تبقى امامنا ناحية تتعلق بالتكنولوجيا التي ابدعت المكيفات اي ما عرف بالملقف (21) بلغة العهود الماضية وقد شاع استعمال الملقف في كثير من بيوت البلدان التي يشتد فيها الحر. ويقوم الملقف على اساس فتحة في السطح يعلوها حاجز موجه نحو اتجاه الريح، يتلقف الهواء وسوقه الحر داخل القاعة عن طريق قناة محدثة في الجدار ولكي يحدث الجريان في القاعة، تفتح النوافذ العليا ليخرج منها الهواء الساخن وقد تحتوي بعض الملاقف على جرار تتساقط منها قطرات الماء فوق سطح من الفحم يمر فوقه الهواء فيبرده.

فاذا اضفنا الى الملقف ما سبق ان ذكرناه عن مهمة الصحن والماء والنبات في تلطيف جو البيت عامة يتأكد لدينا ما كان يملكه البيت العربي من اسباب الراحة والرفاه.

الهوامش

- 1 — عثر على اقدم شكل للفيسفساء في معبد (اورول) في العراق ويرجع الى الالف الثالث فيما عثر على الرسوم الجدارية (الفيسكو) في مارى وتل برسبب في سورية من الالف الثاني.
- 2 — ابلة ومارى من المدن القديمة في سورية، الاولى تقع في وسط البلاد، بين حماة وحلب والانية في الشرق، بالقرب من الحدود العراقية، على نهر الفرات.
- 3 — انظر عن دار معاوية البحث الذي نشرناه تحت عنوان (قصور الحكام في دمشق) في مجلة الحوليات الاثرية السورية (المجلد 22/1982).
- 4 — انظر التحقيق الذي نشرناه عنه في مجلة الحوليات، المجلد 27 لعام 1977.
- 5 — انظر كتابه العمارة العربية في مصر ص 445
- 6 — انظر مقالنا المنشور في مجلة الحوليات الاثرية السورية (المجلد 14، 1964) بعنوان تاريخ دمشق العمراني.
- 7 — ينطبق هذا الوصف تماما على تربة الظاهرة الموجودة في المدرسة الظاهرية بدمشق.
- 8 — لمزيد من المعلومات انظر مقالنا (قصور الحكام) الذي تقدم ذكره، وفيه حديث عن دار السعادة منزل نواب السلطنة في دمشق.
- 9 — اعددنا هنا اسماء بعض البيوت المشهورة في كل من القاهرة ودمشق وحلب ففي القاهرة : بيت جمال الدين الذهبي (1631 م) بيت السميمي (1648 م) بيت ابراهيم كتحذا الناري (1794 م) بيت الكريتلية (1631 م) بيت السادات الوفاية (1659 م).
- وفي دمشق : بيت العظم (مقر متحف التقاليد الشعبية) بيت نظام — بيت خالد العظم (متحف مدينة دمشق) بين المجلد — بيت سقا امين — بيت جبري — مكتب عنبر — بيت (مدرسة زينب فواز).
- وفي حلب : بيت جنبلاط — بيت رجب باشا — بيت صايغ — بيت غزالة — بيت احقباش — بيت صادر — بيت الدلال.

10 — يعتقد البعض ان اسم المشربية انما جاء من كلمة الشرب او المصان الذي توضع فيه ادوات الشرب، القلة او الشربة، وانا نشك في ذلك ولعله اسم محرف عن كلمة اخرى، فلقد استعمل الرحالة ابن جبير حين وصف الخشب المخروط كلمة مشرجيب والمشرجة، وقد خففت الكلمة بمحذف الجيم فاصبحت مشربية اي ان الاسم جاء من مادة الخشب وفي الشام يسمونها (الحفي) وهو نوع من القصب.

اما الاصل الفني للمشربية فانا اعتقد بانها تطورت عن المشبكات او الحواجر ذات الاشكال الهندسية التي توضع على النوافذ او الشبابيك في العمارة الاسلامية اقدم نموذج لها صنع من الرخام موجود في جامع دمشق الاموي، ثم صنعت من الجص وعشقت بالزجاج الملون في العهود الاسلامية اللاحقة (جامع عمرو في الفسطاط وكثير من عمائر الشام في العهدين السلجوقي والايوبي) ثم صنعت بالخشب في نوافذ المباني المملوكية كما صنعت من البرونز والمشربية في الاصل هي هذا الحاجز او الشبك دون البروز الذي اطلقنا عليه الروشن.

11 — اما الروشن فكلمة معربة وجدها مستعملة في كتاب من القرن الرابع فاستخدمتها للتعبير عن البروزان الدفاعية التي تزود بها الحصون، وهي في الاصل من الحجر، وجد اقدم نموذج لها في العمارة الاسلامية في قصر الحير الشرقي، كما عثر على نماذج صغيرة لها في بيوت من العهد البيزنطي في الشمال السوري (منطقة المعرة).

اما الروشن الخشبي فيرجع بان استعماله ادخل على البيوت في العهد العثماني لكثرة استخدامه في بيوت استامبول وشواطىء اليوسفور حيث يكثر استعمال الخشب، واطلق عليه اسم المشربية ايضا في مصر وسمي في حلب كشك من الكلمة التركية () التي انتقلت الى اللغات الاروروبية () وهي تعني القصر الصغير او الشادروان وسمّاها اهل جدة واهل دمشق روشن وهذا اقرب للصحة.

12 — انظر اللوح رقم 7

13 — الفسيفساء المستعملة في هذا العهد وهي شائعة في البيوت الدمشقية على الاخص نوع جديد متطور عن الفسيفساء الرخامية ويسمونها (البلق) وهي مؤلفة من الحجارة الصقلية بحجم حجارة التبار نقش عليها اشكال هندسية او نباتية وملئت بعجينة ملونة فيكون من مجموعها لوحات زخرفية.

14 — لا يشمل هذا الوصف البيوت في جدة وصنعاء التي اسميناها البيوت الابراج لانها تتألف من عدة طبقات ولها تنظيمها الداخلي الخاص (انظر مخططات لبعض هذه البيوت وواجهاتها في الالواح 7 و 8 و 9).

15 — انظر اللوح رقم 14

16 — انظر اللوح رقم 15

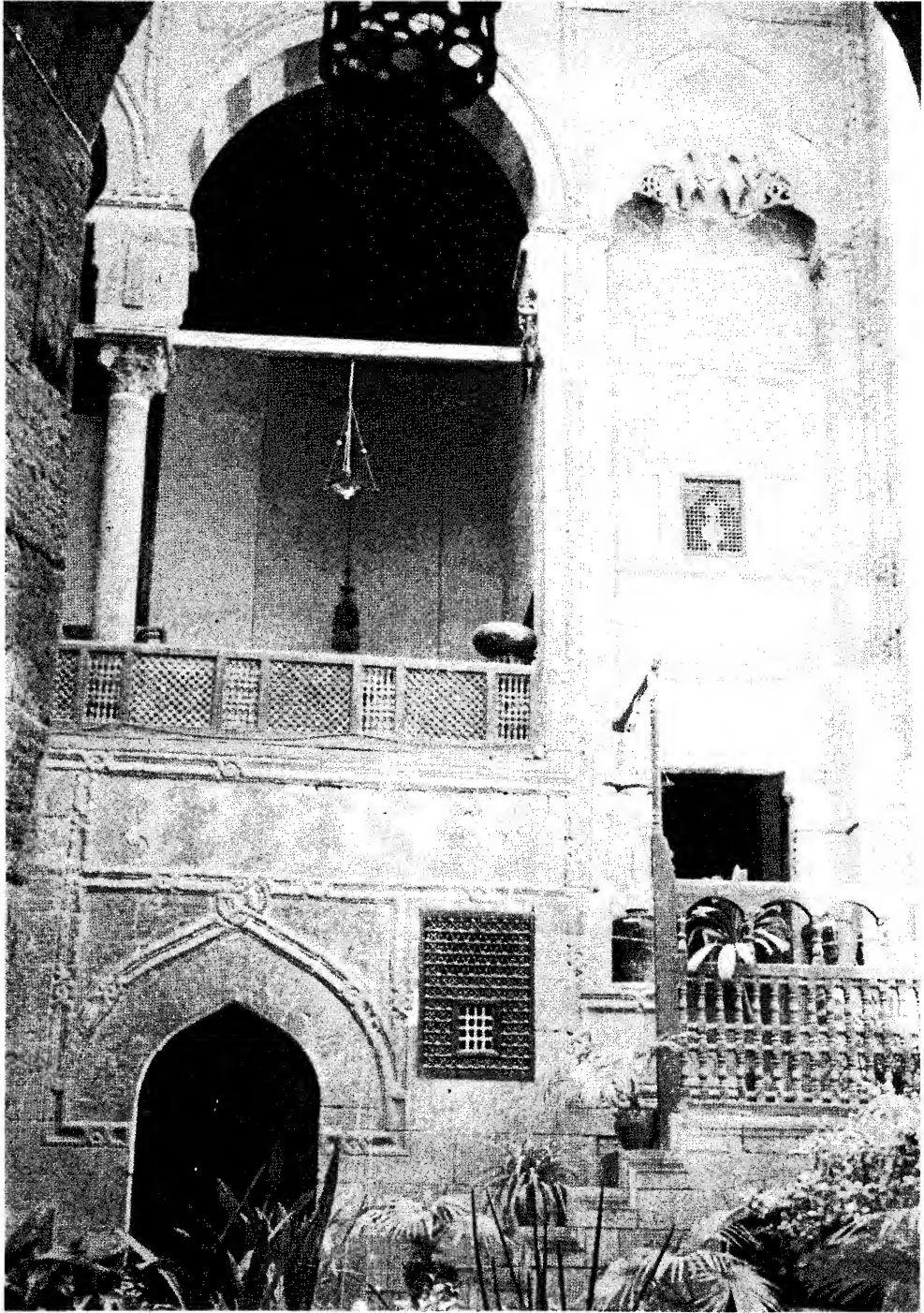
- 17 — يخيّل إلينا أن هذا التخطيط مستمد من البناء السلجوقي الذي سبق أن تحدثنا عنه ذي الصحن المسقوف والأواوين المتقابلة، المزود بغرف في الأركان، وقد ظهر في المدارس وانتقل بعد ذلك إلى بلد العثمانيين وقصورهم (انظر اللوح رقم 5).
- 18 — يطلق العامة في مصر على سقف القبة أو الدقاعة (الشخشيخة) ويكون على شكل منور مسقوف أو على شكل قبة كما رأينا في قاعة محب الدين في القاهرة (1350 م) وهي من المعهد المملوكي (اللوحة رقم 10) ونلاحظ في الصورة بأن طاسة القبة قد تحولت إلى شبك من الجص المعشق ذي الأشكال الهندسية، يقول حسن عبد الوهاب بأنها أول قبة من هذا النوع في مصر، لكنني أضيف بأن الأصل الأول لها ظهر في المغرب، وأقدمها قبة جامع تلمسان (الجزائر) التي شيدها المرابطون سنة (1135 م) وشيد بعدها المرينيون قبتين على شكلها أحدهما في جامع فاس جديد (1276 م) والثانية في جامع تازة في المغرب (1294 م).
- 19 — يطلق عليه في بعض البلدان اسم (الباتنج) وفي ذلك إشارة إلى الأصل الفارسي للكلمة.

اهم المصادر المصادر العربية

- 1 — د، انور شكري : العمارة في مصر القديمة 1970
- 2 — ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، 1969
- 3 — رحلة ابن جبير، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة 1955
- 4 — ان فضل الله العمري : مسالك الابصار
- 5 — ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، جزآن، القاهرة 1960 — 1964.
- 6 — ابن بطوطة : الرحلة (تحفة النظار في غرائب الامصار) القاهرة 1938
- 7 — د. فريد شافعي : العمارة العربية في مصر
- 8 — محمد بدر الدين الخولي : المؤثرات المناخية والعمارة العربية، جامعة بيروت
- 9 — د. صالح لمعي مصطفى : عمارة الحضارات القديمة، دار النهضة العربية، بيروت 79
- 10 — د. صالح لمعي مصطفى : التراث المعماري الاسلامي في مصر، بيروت 1975
- 11 — المقرئزي (تقي الدين) : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار، جزآن، 1370
- 12 — القلقشندي : صبح الاعشى، القاهرة 1913، 19
- 13 — المقدسي (شمس الدين محمد) : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ليدن 1909
- 14 — د. اسعد طلس : الاثار الاسلامية في حلب، دمشق 1956
- 15 — د. عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة 1969
- 16 — د. عبد الرحمن زكي : القاهرة تاريخها واثارها 1969
- 17 — الفن في العراق القديم : انطوان مورتفارت، ترجمة د. عيسى سلمان وسليم طه
- 18 — د. ثروة عكاشة : الفن العراقي القديم
- 19 — د. عبد القادر الريحاوي : العمارة العربية الاسلامية دمشق 1979
- 20 — د. عبد القادر الريحاوي : مدينة دمشق، تراثها واثارها، دمشق 1969
- 21 — د. عبد القادر الريحاوي : قلعة دمشق، دمشق 1979
- 22 — د. عبد القادر الريحاوي : قصور الحكام في دمشق، الحوليات الاثرية السورية المجلد 22، 1972/23 — 1973
- 23 — المدرسة الجقمقية، الحوليات الاثرية، المجلد العاشر، 1960
- 24 — تاريخ دمشق العمراني : الحوليات الاثرية، المجلد 14، 1964

المصادر الاجنبية

- 1 — ASLANAPA (OKTAY) : TURKISHART AND ARCH
- 2 — BURCHKART : ART OF ISLAM
- 3 — BUTLER : ANCIENT ARCH, IN SYRIA, LEYDEN, 1907 — 16
- 4 — CRESWELL (K.A.C.) EARLY MUSLIM ARCH
- 5 — DAVID (J.C.) : ALEP... BULLETIN D'ETUDES ORIENTAL, T.XX VIII, 1975
- 6 — FRANKFORT (H) THE ART AND ARCH. IN THE ANCIENT ORIENT LONDON 1975
- 7 — GARDNER (S) : EVOLUTION OF THE HOUSE LONDON 1975
- 8 — KHAN (M.S.) : JEDDAH OLD HOUSES 1981
- 9 — HOHG : ISLAMIC ARCH. NEWYORK, 1977
- 10 — STUDIES IN ISLAMIC ART AND ARCH. IN HONOUR OF PROFESSOR CRESWELL, CAIRO 1965
- 11 — MORGART (A) : THE ART OF ANCIENT MESOPOTAMIA
- 12 — PARROT (A) : ASSUR, PARIS 1961
- 13 — PARROT (A) : SUMER, PARIS, 1960
- 14 — SOURDEL (Do et Ja) : LA CIVILISATION DE L'ISLAM CLASSIQUE, PARIS, 1968.
- 15 — SCHEFFER (CL) : UGARITICA, PARIS, 1939.
- 16 — SAUVAGET (J) : ALEP, PARIS, 1941
- 17 — PORTER : FIVE YEARS IN DAMASCUS, 2 vol. LONDON 1958
- 18 — PAUTY (E) : LES PALAIS ET LES MAISONS D'EPOQUES, MUSULMANS AU CAIRE, LE CAIRE, LE CAIR, 1932.



منزل كرتيلية — القاهرة



قصر العظم — دمشق



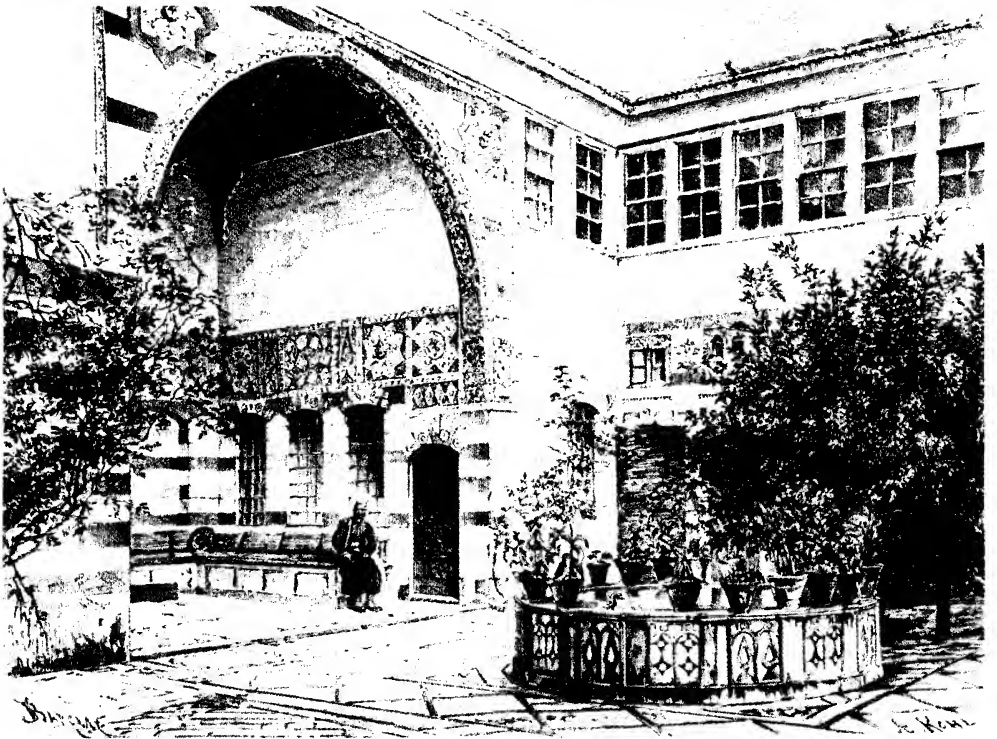
الواجهات الخارجية للبيوت في حي دمشقي قديم



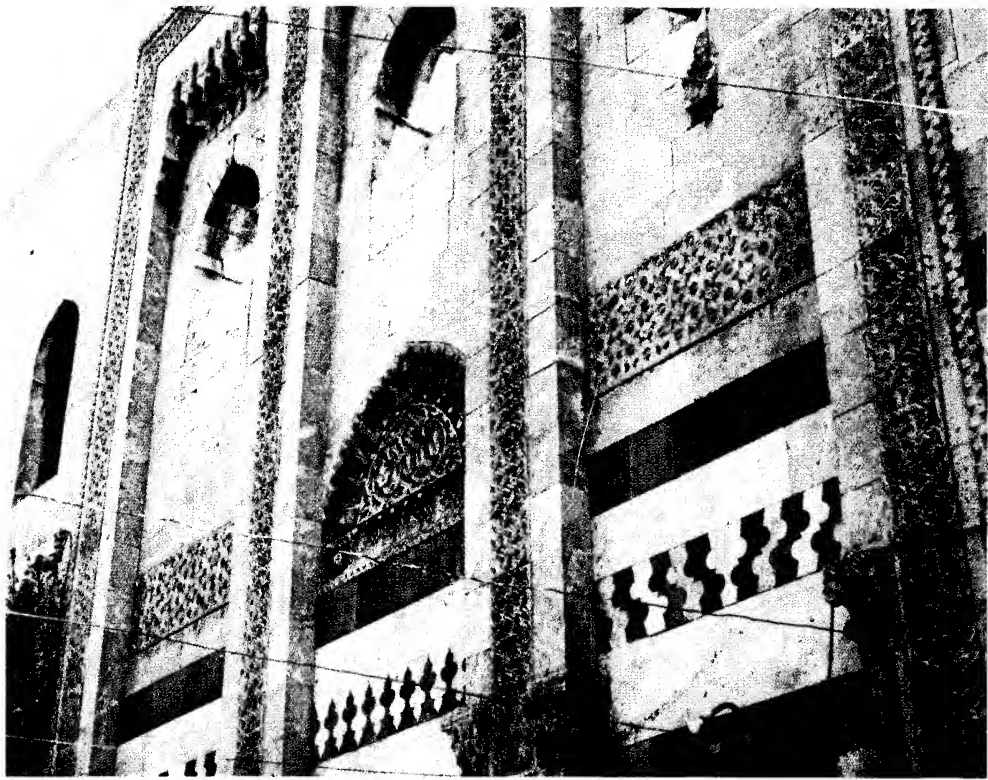
الكسوة الخشبية في جدران القاعات — بيت دمشقي



بيت السباعي — دمشق — واجهة داخلية



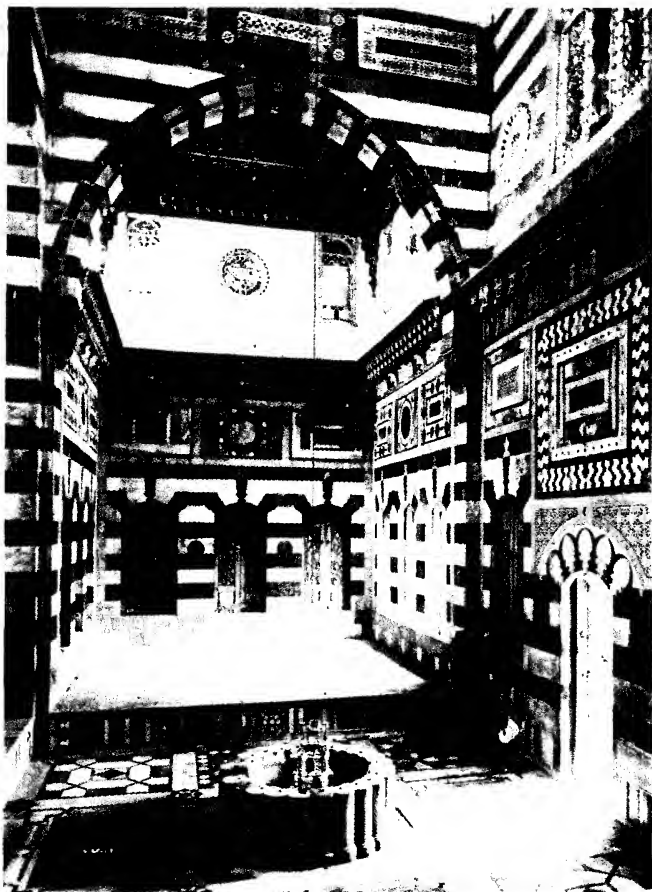
بيت دمشقي



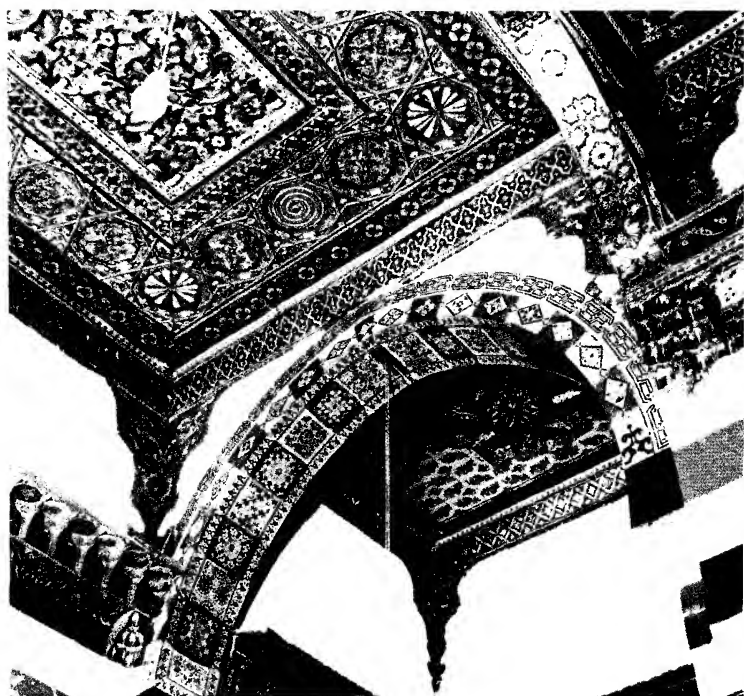
بيت رجب باشا — حلب — واجهة داخلية



بيت غزالة — حلب — واجهة داخلية



قصر العظم في دمشق
القاعة الرئيسية



بيت السباعي — دمشق
سقف إحدى القاعات